

صورة المرأة الجزائرية من خلال الكتابات الكولونيالية

شهرزاد واضح

طالبة دكتوراه في التاريخ الاجتماعي

جامعة سطيف-2-

chahraouadah92@gmail.com

تاريخ القبول: 2019/02/07

تاريخ الإرسال 2018/12/26

ملخص:

تروم ورقتنا البحثية هذه لإبراز دور ومكانة المرأة الجزائرية في الفترة الاستعمارية، حيث أنه بالرغم من الضبابية التي خيمت على وضعها في الفترة الحديثة. في ظل التغييب التام تقريبا لدورها ومكانتها الاجتماعية نتيجة لعدة عوامل: لعل أهمها المنظومة الذكورية التي تنشأ فيها المرأة، إضافة إلى النسق السوسيوثقافي للمجتمع الجزائري الذي يستمد شرعيته من العادات والتقاليد والقوانين العرفية التي جاءت في بعض الأحيان مجحفة في حق المرأة. كما كان للذاكرة الشعبية والتراث الشفوي نصيبا من تكوين شخصية الفرد الجزائري الذي اعتبر كل ما يخص المرأة من الطابوهات الممنوع الخوض فيه. إضافة إلى أن الكتابات المحلية لم يصلنا منها إلا النزر القليل حول قضايا المرأة، لذلك ارتأينا في هذه الورقة البحثية التطرق لـ "صورة المرأة الجزائرية من خلال الكتابات الكولونيالية"، هته الأخيرة التي ساهمت إلى حد كبير في إمطة اللثام عن بعض القضايا التي كانت إلى فترة قريبة

مهمشة وفي إطار المسكوت عنه. وعليه كان لزاما على الباحث في التاريخ خاصة الشق الاجتماعي منه الإطلاع عليها لسد الثغرات المعرفية التي خلفتها الكتابات المحلية، لكن هذا دون إهمال النظرة التمحيصية والقراءة النقدية في هذه الكتابات التي تعد في الأصل أداة من أدوات الاستعمار، وهدفها الأساسي اختراق عمق المجتمع الجزائري .

الكلمات المفتاحية:

المرأة الجزائرية، الكتابات الكولونيالية، المجتمع الجزائري، الفترة الاستعمارية، العادات، الأعراف.

Title: The image of Algerian woman through colonial writing

Abstract :

This paper is intended to highlight the role and position of Algerian women in the colonial period despite the ambiguity of their status in the modern period. With nearly total invisibility of their role and social status as a result of several factors: perhaps the most important of which the masculine system in which woman are created, as well as the sociorcial pattern of Algerian society, whose legitimacy derives from customs, traditions and customary laws that have sometimes been unjust in the right of woman. The popular memory and the oral tradition also had a share of composition of the Algerian individual, who considered everything that belonged to woman is a taboo that mustn't be discussed. In addition, the local writhing has received very little on woman's issues, so we through the Colonial Writings, the recent which contributed significantly to the unveiling of some issues that were until recently marginalized and

under untold story. Thus, it has been a must for the researcher in history, especially the social part of it, to see it in order to fill the knowledge gaps left by the local writings, but this without neglecting the insight and the critical readings in these writings, which is originally a tool of colonialism, and its main objective is penetrating the depth of Algerian society.

Keywords:

Algerian women, Colonial writings, Algerian society, colonial period, custom.

مقدمة:

تعتبر قضايا المرأة من أكثر المواضيع التي أثارت فضول المؤرخين والكتاب الفرنسيين للكتابة فيها، حيث اعتبرت مجالا خصبا نظرا لمكانة المرأة وأهمية دورها الاجتماعي. كما أن التطرق لقضايا المرأة آنذاك كان يعدّ نوعا من اختراق عمق المجتمع الذي لطالما ميّزته سمة الانغلاق، حيث أن الجزائريين كانوا يعتبرون كل ما يخص المرأة في إطار الحُرمة والشرف؛ لذلك ولفترة طويلة غيّبت الكتابات التاريخية دور ومكانة المرأة خاصة منها الكتابات المحلية التي لم يصلنا منها إلا النزر القليل حول المرأة وهذا تحصيل حاصل لمنظومة اجتماعية تحكمها العادات والتقاليد. ومن ذلك ارتأينا أن تتمحور ورقتنا البحثية هذه حول: صورة المرأة الجزائرية من خلال الكتابات الكولونيالية، وهذا في محاولة منا لإبراز دور المرأة ومكانة وكذا مدى تفاعلها في المجتمع، إضافة إلى رغبتنا في التعرف على نظرة الآخر للمرأة الجزائرية. وعليه كانت اشكاليتنا كالآتي: إلى أي مدى ساهمت الكتابات

الكولونيالية في كشف واقع المرأة الجزائرية؟ وما هي أهم قضايا المرأة التي تناولها أعلام الفرنسيين بالدراسة؟
عناصر الورقة البحثية:

- 1- تنشئة الفتاة في المجتمع الجزائري
- 2- المرأة والنشاط الحرفي
- 3- المرأة والتعليم
- 4- المرأة في ظل سلطة العرف (قضية الميراث)
- 5- المرأة والسلطة (لالة فاطمة نسومر أنموذجا)
- 6- التبوك وزيارة الأضرحة
- 7- الانحرافات النسوية (السحر أنموذجا)
- 8- أزياء المرأة الجزائرية
- 9- نماذج من الكتابات النسوية الكولونيالية حول المرأة الجزائرية
- 1- تنشئة المرأة في المجتمع الجزائري:

المرأة هي الركيزة الأساسية في بناء كل المجتمعات وهذا راجع لأهمية الأدوار المنوطة بها، خاصة وأنها المسؤول الأول عن تنظيم الأسرة والتنشئة الاجتماعية. والملاحظ أن الأسرة الجزائرية خصت الفتاة بطرق تنشئة مختلفة تماما عن تنشئة الولد الذكر. وأهم ما تربي عليه الفتاة هو الحشمة والانطواء على نفسها وتغطية الرأس حتى داخل المنزل الأسري. تترعرع الفتاة الجزائرية منذ نعومة أظفارها في مجتمع يحد من حريتها ويخضعها لنمط معيشة معين في إطار الأعراف والتقاليد. ومن ذلك تُوكل مهمة تربية البنت إلى أمها حيث أن الفضاء الوحيد الذي ترتاده الفتاة هو المنزل ومهمتها الأولى هي تعلم كيفية رعاية البيت والقيام بكل الأعمال المنزلية لكي تكون مهيأة لأخذ

دور ربة البيت مستقبلا. هذا ما جعلها تحرم من التعليم الذي كان حكرا على الذكور، فهم يرون في تعليم المرأة خروجاً عن المألوف وخرقا للأعراف¹.

تأخذ الفتاة عن أمها مسؤوليات البيت الذي يعد مملكتها وفضاءها الذي تقضي كل أوقاتها فيه. ففي بادئ الأمر تقوم بالأعمال البسيطة كإعداد القهوة وتنظيف المنزل، ثم ما إن تبلغ الحادية عشر من عمرها تُوكل لها كل مهام الاعتناء بالبيت بما في ذلك تربية إخوتها الصغار، حيث تعتبر من تقوم بهذه الأعمال كفناً لتكون زوجة وأم ولكنه وهذا هو الهدف الأسى والدور الأساسي لها في الحياة¹. ونظرا لخصوصية المجتمع الجزائري وانغلاقه فإن الأم تكون مسؤولة عن كل أفعال بناتها لذلك فإنها تحرص في تربيتهن على أدق التفاصيل حتى نوعية الألعاب التي تتسلى بها الفتاة فإنها تكون من انتقاء الأم، فغالبا ما تهديها دمية وتطلق عليها اسم "العروسة" لكي تقوم البنات برعايتها والاهتمام بها وممارسة دور الأمومة عليها².

فهذا إذن أول دروس الحياة بالنسبة للفتاة الجزائرية التي لا ترى الحياة إلا من خلال المنظور الذي ترسمه لها عائلتها في ظل انعزالها عن العالم الخارجي الذي يعدّ فضاء محرما عليها ولوجهه ويبقى حكرا على الذكور.

2- المرأة والنشاط الحرّفي:

¹ - M^{me} P. Bernard : Ali et Aicha, Dessins V. Fulconis, Oran, 1907, P. 04.

¹ - ج. ديسبارمي: الفوايد في العوايد والقواعد والعقائد، مطبعة السيد مورقان، البليدة، 1905، ص. 27.

² - ج. ديسبارمي: الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامية، مطبعة السيد جوردان، الجزائر، 1907، ص. 150.

الشائع أن المجتمع الجزائري مجتمع مغلق على نفسه، أن حضور المرأة ينحصر داخل بيتها فقط ولكن نحن هنا من خلال كتب الدارجة وجدنا بعض الشواهد على نشاط المرأة خارج المنزل ومن أمثلة ذلك ما ذكره "دولفين" "G. Delphin" في كتاب "جامع اللطائف وكنز الخراف" أن للمرأة دور اقتصادي مهم جدا، وكان لها حضور في الأسواق وتمارس نشاط التجارة بشكل يومي وتتعامل مع الزبائن بطريقة مباشرة وبدون وسائط، وغالبا ما كانت تعرض المرأة في السوق السلع التي تحضرها بنفسها في البيت ك"الدهان" (الزبادي).³

وقد تميزت النساء الحضريات بالعديد من الصناعات التي اتسمت بالجودة العالية كصناعة الحرير والكتان والمعادن النفيسة وخيوط الذهب. وهذا النمط من الصناعات يعبر عن البورجوازية المحلية في المجتمع الجزائري الحديث.⁴

وهناك بعض الحرف النسوية انتشرت في منطقة معينة دون الأخرى، فمثلا نساء السواحل يركزن على التطريز على رأسها الشبيكة "La Dentelle" وبقيت مجهولة لمدة من الزمن لأنها تركزت في المنازل فقط، واقتصرت على المناسبات الاجتماعية فهي تكون عادة لتجهيز العرائس واستقبال المولود الجديد.⁵

G. Delphin: **L'Arabe Parlé**, A.Jourdan, Alger, 1891, P. 41.-³

A. Wornier : **L'Algerie devant le sénat**, Imprimerie de la Dubuisson et -⁴

G, Paris, 1863, P.58, 59.

E. Masquery : **Formation des cites chez les population sédent aires** -⁵
de l'Algerie(Kabyles du Djurdjura, Chawouia de l'Aurès, Beni Meزاب), thèse présenté a la faculté des lettres de Paris, 1888 ; P. 32-40.

أما نساء قسنطينة فقد اشتهرن بصناعة " الصفاحة " وهي نسيج تتخلله خيوط من صفيح المعادن والتطريز بالفتلة والمجبود، الذي يطلق عليه " الفرقاني ".

3- المرأة والتعليم:

لقد مسّ التعليم في أوساط المجتمع الجزائري شريحة الذكور دون الإناث اللواتي حرمن منه منذ حداثة سنّهنّ، وكانت حجة الأهل في ذلك حفظ بناتهنّ وصيانتهم من الإختلاط مع الجنس الآخر. فأنوثة الفتاة كانت سببا كافيا لحرمانها من ارتياد المدارس والكتاتيب وأخذ ولو الأبجديات الأولية للتعليم¹.

بالرغم من السواد الأعظم من العائلات الجزائرية منعت بناتها من التعليم بحجة اتقاء الفساد، إلا أن هناك البعض من العائلات حمل فيها الأب والأخوة على عاتقهم مسؤولية تعليم بناتهنّ من خلال تخصيص بعض الوقت لهنّ في الجلسات المسائية لتعليمهنّ سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وكيفية الوضوء والصلاة. وهذا في محاولة منهم لتعريف الفتاة على أساسيات الحياة الدينية². إلا أن خوف الأسرة الجزائرية من تعليم بناتها كان واضحا في الثقافة الشعبية للمجتمع الجزائري، ومن ذلك ما جاء في الأمثال الشعبية: " ما تعلم بنتك حروف ما تسكنها عروف " وجاء في مثل آخر " لا تسكنوا نساؤكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا علمن بالعرى

¹- Charles de Foucaud, (Le per) : Dictionnaire Touareg , français, Dialecte de L'Ahaggar, Imprimerie National de France- T(1), 1951, p 478.

²- ج. ديسبارمي: العوايد...، مصدر سابق، ص. 26.

وعودوهن لا فإن نعم تجرؤهن"³. من خلال هذه الأمثال الشعبية نلاحظ أن تعليم الفتاة كان يعتبر من المحضورات في ظل المنظومة الذكورية التي تحكم المجتمع الجزائري هذا ما تسبب في انعزال الفتاة الجزائرية عن الأحداث العامة وتعزيز فكرة عدم جدوى تعليم الفتاة. وفي إطار المشروع الاستعماري سعت الإدارة الفرنسية لاختراق المجتمع الجزائري عن طريق المرأة التي تعد الدعامة الأساسية لأي مجتمع، لذلك قاموا بإقحامها في المدارس الفرنسية. هذا لعزل المرأة الجزائرية عن محيطها العربي الإسلامي وطمس معالم الشخصية الجزائرية، خاصة وأنها مسؤولة عن التنشئة الاجتماعية. وقد ارتكزت دراساتهم حولها نظرا للمهام الكبرى المنوطة بها.

4- المرأة في ظل سلطة العرف (قضية الميراث):

بالرغم من أن المجتمع الجزائري في غالبه يدين بالإسلام الذي شرع للمرأة حقها في الميراث وقد تجلّى ذلك في سورة النساء الآيتين 7 و 11، إلا أن هذه القوانين الشرعية تعرضت للتجاوز والتّحريف في أغلب مناطق البلاد خاصة إقليم الزواوة حيث نصّت هناك القوانين العرفية على منع المرأة من الميراث واحتكاره للرجل وهذا بموجب أمرية 1749 التي أقرّها إمام مسجد "ثاحمامت"⁴، بسوق السبّات بنات واسيف حيث اجتمع بأعيان المنظمة وأجمعوا أمرهم على منع المرأة من الميراث، كما اعتبروا أن المرأة الماكثة عار على عائلتها، لذلك لا

Mohamed ben Chaneb : **Proverbes arabes de l'Algérie et du** ³
Maghreb, Recueillis traduits et commentés, Paris, ErnestLeroux, 1906,
P.246,247.

⁴ - للإطلاع على نص الأمرية ينظر:

F. Patroni: **Délibération de l'année 1749 dans la grand Kabylie**, R.A,
V.39, Alger, 1895, p.315.

يحق لها التصرف في شيء وحتى وإن كانت المرأة لها الملكية المطلقة إلا أنّ التسيير يكون من قبل رجال عائلتها كالأب والأخ والزّوج⁵.
وقد تطرّق "مصطفى بن الخوجة" لقضية ميراث المرأة القبائلية في كتاب "الاكتراث في حقوق الإناث"، حيث اعتبر ذلك خروجاً عن الشرع والطّبع، لا بل وأكثر من ذلك فقد حكمت القوانين العرفيّة على من يسمح للمرأة بالتّوريث بعقوبة مادّية قُدّرت بخمسين ريالاً وهذا الحكم صرح به في قانون قبيلة "بني فرج"¹.

كما أن تفكير المرأة القبائلية الراسخ بأن الحفاظ على ترابط العلاقات الأسرية أهم لديها من المال السبب الرئيسي في تخليها عن حقها الشرعي من الميراث والتنازل عنه لأخوتها الذين هم في نظرها سندها في الحياة. كما أنّ الأعراف عزّزت لديها قناعة أنّ الميراث ليس من حقها فهي إذن لم تكن لتطالب بشيء هي أساساً لا تعتبره حقها، كما أن تمجيد الجنس الذكري الذي يمثل بالنسبة لها مثال القوة ورجاحة العقل جعلها لا تناقش الموضوع خاصة وأن المال يذهب لأخيها الذي ترى فيه ملجأها وحاميها من نائبات الدّهور خاصة في حال تعرضها للمشاكل الزوجية. لهذا لم تحاول المرأة القبائلية معارضة القرار الوارد ضمن (أمرية 1749) والمطالبة بحقها، بل اعتبرت طلب الميراث عاراً، وهذا ما كانت النساء القبائليات تدعمه بالصّمت عدّة

⁵ - Souad Ben Djaballah: L'accès des femmes a la propriété foncière; le cas de l'Algérie, Tunis, 2000, p.179.

¹ - محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري: الاكتراث في حقوق الإناث، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1895، ص. 30.

قرون. كما انتشر في الأوساط الاجتماعية بعض الأمثال الشعبية التي تؤكد على حتمية حرمان المرأة من الميراث والتي نذكر منها:
حقك استلب
اغتصبه إخوتك
باعوك بثمن رخيص
تفاهم عليه الرجال².

هذا المثل الشعبي هو تعبير صريح عن حال المرأة التي تتنازل عن حقها لأنها ترعرعت في مجتمع ذكوري، جعل منها كائناً لا يستطيع الدفاع عن نفسه، كما أن خشيتها من قطع الروابط الأسرية مع أهلها وإخوتها بوجه خاص جعلها تتنازل عن الميراث في سبيل الحفاظ على اللحمة العائلية، لذلك اعتبرت المرأة التي تطالب بحقها في الميراث قد تجاوزت الحدود ودخلت في دائرة العار، فمن المشين أن تكسر المرأة الطابوهات الاجتماعية وتخرج عن العرف الاجتماعي السائد في محيطها.

لكن المحير في الأمر أنّ منطقة زواوة مُتمسكة بتعاليم الإسلام، ومعظم قوانينها العرفية مستقاة من القرآن والسنة إلا أن هذا القانون خارج تماماً عن نطاق الشرع وفيه هضم واضح لحق المرأة لكنّه مطبّق على نطاق واسع، والملاحظ حتى المرأة لا تطالب به بل وترى في ذلك عدلاً، فإذا أرادت المرأة المطالبة بحقها في الميراث تعاب على ذلك حتى من بنات جلدتها وهذا راجع لتأصل الأفكار العرفية عندهم، و قد كانت حجّتهم في ذلك هي الحفاظ على وحدة ملكية الأرض في سلالة واحدة، فتوريث المرأة يخرجها إلى سلالة جديدة

²- E. MASQUERAY : OP.Cit, P. 25.

(سلالة الزوج)³، وهذا ما يرفضونه إطلاقاً في إطار ما يسمى بالانغلاق القبلي، والملفت للانتباه أنّ هذه الظاهرة لم تكن محصورة في حيز جغرافي واحد بل تعدّتها إلى كامل أرجاء المغرب الإسلامي، وهذا كسبيل للاحتيال على الشريعة، حيث نجد بعض الآباء يحبسون أملاكهم على أبناءهم الذكور دون الإناث، أو يقوم الوالد بتقسيم أملاكه قبل الوفاة على أبناءه الذكور فقط¹.

ويرجع "هانوتو ولوتونو" "Hanoteau et letorneux" سبب منع المرأة من الميراث هو عدم قدرتها على التحكم والسيطرة على الأراضي، فهي حسيم عاجزة عن الدفاع عنها وبالتالي لا يمكنها امتلاكها، ويضيف هانوتو Hanoteau أنّ المرأة التي تراث أباه تمنح ذلك الإرث لزوجها أو ينهبه منها عند انتهاء رابطة الزواج ويضيع حقها حيث أنّها لا تستطيع استرجاع أملاكها منه، وبذلك فهي تتنازل عن حقها في الإرث لإخوتها للحفاظ على الرابطة الأسرية مع عائلتها².

5- المرأة والسلطة (لالة فاطمة نسومر أنموذجا):

ولدت لالة فاطمة نسومر في قرية آيت سوارغ من دوار يللتن من بلدية عين الحمام في جبال جرجرة حوالي عام 1830م/ 1246هـ، في عائلة صوفية حيث أن أبها محمد بن عيسى كان مقدم للطريقة الرحمانية و أمها لالة خديجة التي تسمت عليها أعلى قمة جبلية

³ - حياة قارة: النساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط، دار أبي رقرق، الرباط، 2011، ص.24.

¹ - أحمد ساجي: الزواوة من القرن 16 حتى القرن 19 - عهد إمارة كوكو-، ط. 1، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2015، ص. 197.

² - هانوتو ولوتونو: منطقة القبائل والأعراف القبائلية، ج. 2، تر: مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013، ص. 287.

بالمنطقة. وقد كان أبوها يحظى بمكانة مرموقة في مجتمعه لأنه ينتمي للطريقة الرحمانية خاصة وأن المجتمع الجزائري صوفي بامتياز. لذلك حطت لالة فاطمة بتربية خاصة على خلاف ما كان حاصلًا مع قريناتها¹⁶.

بالرغم من كونها امرأة محاربة وذات نشاط عسكري إلا أنّ هذا لم يمنعها من أن تكون ذات نفوذ ديني واسع في منطقة القبائل الكبرى. خاصة وأنها تنتمي إلى عائلة مرابطية ومعظم أتباعها كانوا من مريدي الطرق الصوفية. فالسبب في نجاح نشاطها العسكري والتفاف الأهالي حولها هو دورها الديني واعتبارها من الصالحاء³.

نظرا لنشاطها واسع النطاق ونيلها حرية متفردة عن قريناتها، إضافة لمعاركها الدامية مع قوات العدو المستعمر جعل بعض الضباط الفرنسيين يفترون عليها بأنها امرأة منحلة أخلاقيا وأنها كانت تستقبل الزوار فرادى خاصة الشباب منهم الذين كانت تطيل المكوث معهم. وهذا في محاولة منهم لتشويه بطولاتها. و من ذلك ما ذكره هانوتو Hanoteau في كتابه أشعار شعبية من قبائل جرجرة، على أن لالة فاطمة نسومر منحرفة أخلاقيا وتستغل مكانة عائلتها الصوفية واتخذت من الجهاد ضد المستعمر ذريعة للاختلاء بالرجال في خيمتها خاصة الشباب منهم⁴.

6- التبرك وزيارة الأضرحة:

³ - عبد الرحمان بن محمد الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، ج.4، ط.7، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، الجزائر، ص. 34.315

⁴ - محمد أرزقي فراد: تحرير تاريخنا من المدرسة الكولونيالية "بلاد الزواوة نموذجاً"، سلسلة منبر حوار الأفكار، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2012، ص. 26.

يعتبر التبرك وزيارة الأضرحة من أكثر الممارسات شيوعا في المجتمع الجزائري خاصة في أوساط فئة النساء اللواتي كان لديهنّ إيمان راسخ في قدرة الولي الصالح على تحقيق مطلبها وإجابة رغبتها. وقد زادت حدة انتشار ظاهرة التبرك والزيارة في وقت الأزمات الاجتماعية من مجاعات وأوبئة وكوارث طبيعية فتكت بأرواح الجزائريين. كما أن الأضرحة والقبب كانت ملجأ لكل من يعاني من الأمراض الروحية. ونظرا للانتشار الواسع للأمراض والآفات زادت شعبية الأولياء والمرابطين الذين يعتبرهم الدهماء من الناس منقذهم¹.

وعلى اعتبار أن المرابطين على قدر واسع من الثقافة الطبية فإنهم قسّموا الأمراض إلى أمراض جسدية ظاهرة وأمراض أخلاقية وهذه الأخيرة غالبا ما يردونها إلى العالم السفلي حسيهم (عالم الجن أو العالم الغيبي الذي كان في نظرهم يعد السبب الأول في كل مصابهم) والزيارة تعد بالنسبة لهم تقربا لله بواسطة الأولياء الذين يعتبرونهم رمزا للصالح، وتقديم الأضاحي لهم يعد بمثابة القرابين لكي يحصلوا على الشفاعة والشفاء².

كما ذكرنا سالفا فإن شريحة النساء هنّ أكثر ممارسة لهذه الظاهرة، حيث يرى "دوتي" أن إقصاء المرأة من المشاركة في الفعاليات

¹ - إدموند دوتي: الصلحاء "مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر"، تر:

محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، المغرب، 2014، ص. 110.

² - Abou Bekre Abd Esselam Ben Choaib : **Les Marabouts Guérisseurs**, R.A, V. 51, A. 1907, p. 251.

الدينية الكبرى وحرمانها من زيارة المساجد يجعلها تعوّض ذلك بزيارة الأضرحة التي تعتبرها أماكن مقدسة تضاهي في ذلك المساجد³.

7- الانحرافات النسوية (السحر أنموذجا):

تعد المرأة من أكثر الفئات تمسكا بالسحر، هذا كونها بطيئة جدا في ترك وهجر التقاليد التي تعود إلى أزمنة غابرة. إضافة إلى كونها تحب خوارق العادات ولا تريد تقبل أنّ كل شيء قابل للتغيير و المناقشة. و عليه فالمرأة متمسكة بالسحر وترفض رفضا قاطعا فكرة القضاء على هذه الممارسات، وهذا راجع إلى ذهنيته وواقعها الاجتماعي حيث أن وجودها في مجتمع ذكوري بحث حتم عليها الفرار لهذه الممارسات من أجل تغطية النقص الذي زرعه فيها النظم الاجتماعية⁴.

وعليه عندما يبدوا الاعتقاد في الغيبات منسيا ومفقودا، فإن المخيال الأنثوي يكون ملجأ خصباً وسندا غير متوقع للترويج لهذه الأفكار، لأن أساطير السحر تتشكل من جديد بفضلهم.

وفي منطقة الأوراس انتشر التصديق بهذه الظاهرة حيث كانت الأوراسيات شديداً تتعلق بالسحر والسحرة. وكانت كل نساءه المتقدمات في السن لهنّ دراية بعالم السحر والشعوذة. وقد كنّ يرثن ذلك من قبل أمهاتهنّ أو ساحرات أخريات. فتعلق المرأة الجزائرية بمثل هذه الطقوس راجع إلى حاجة المرأة لاكتساب القوة، والتعويض عن النقص الذي تعاني منه نتيجة اضطهاد المجتمع لها، وكبح حرياتهما

³ - إدموند دوتي: المصدر السابق، ص. 25.

⁴ - Villot Eugén : **Mœurs et Coutumes institutions des indigènes d'Algérie** , Libraire éditeur, Alger, 1888,p.230.

فهي تلجأ إذن للسّحر كرد فعل وتمرد على الواقع الحاصل لكي تستطيع إثبات نفسها تتوجه لذلك رغبة منها في إبراز مواطن قوتها⁵. خاصة وأنّ معظم من أصيب بالسحر أو المس فإنّه ينسب ذلك إلى تحالف المرأة مع قوى الجن ؛ فالسحر والنساء هما العنصرين الأساسيين المتداولان عند الخطاب العام. والسحر النسائي موجود حقيقة، ومنه ارتبطت كل الأفعال المشينة في المجتمع بصفة مباشرة بالمرأة عن طريق وسيط السحر، هذا لأنّ النساء غالباً ما يلجأن إليه لحماية أنفسهن. وإذا كانت الأسباب الاجتماعية هي التي تتحمل مسؤولية هذه المعطيات، فإنّ هناك عوامل أخرى تعتبر كمحفزات تدفع المرأة للقيام بهذا الفعل من أجل الوصول إلى هدف معين خاصة في ظل تداخل الأطر الاجتماعية وضعف الوازع الديني. فالسّحر كممارسة نسوية محضة يهدف إلى⁶:

- التدخل في عمليات الانتقالات الإثنية خاصة وأنّ المرأة حرمت من الإرث في بعض المناطق.
- ضمان الاستقرار الأسري وحماية نفسها من الطلاق.
- السّماح للمسحورة (طالبة السّحر) بالخروج من الإطار العائلي وتكوين أسرتها المستقلّة (الاستقلال الاجتماعي).
- جعل طالبة السّحر ذات سطوة والرغبة في تحقيق الاستقلالية عن نفوذ الرجل وجعله تابعا لها.

⁵ - Gaudry Mathéa : **La femmes, Chaouia de l'Aurès**, E.Chiheb-Awal, 1998,P.225

⁶ - A. Ouitis: **Les Contradictions Sociales Et Leur Expression Symbolique Dans Le Setifois**, S.N.E.D,Zirout Youcef ,Alger, Algeria, P.77

والواقع يكشف أنّ المرأة كانت لا تملك حرية التصرف في أمورها. باعتبارها قاصرة بشكل تام، وهي مقيدة من سلطة أبيها إلى سلطة زوجها. كما أنّ المرأة بعد الزواج لا تحتفظ إلا برابطة رمزية مع أسرتها؛ فهي لا تزورها إلا في الظروف القاهرة والمناسبات الكبيرة كالزواج أو الوفاة. وهنا تقوم المرأة بعملية سحرية أخرى متمثلة في حمل أحد أقاربها من جهة الأب (ابن عم) على الزواج ممّا وهذا لضمان بقاء اتصالها مع أسرتها وتقليل نسبة طلاقها هذا في إطار الحفاظ على تماسك الأسرة الممتدة¹.

إذن وبشكل غير مباشر وباستخدام وسيلة السّحر ترمي النّساء إلى إثبات مكانتهن. كما أنّها تنزع إلى الاحتماء من الطلاق الذي يعدّ من أبشع ما تعاني منه المرأة باعتباره نوعاً من أنواع الاضطهاد. ومنه فلإمكانية الوحيدة لحماية المرأة أُسست على الممارسات السّحرية التي تستند إليها حتى قبل الالتحاق بأسرة زوجها. لهذا فالسّحر عند البعض هو تعبير عن الكفاح النسوي.

8- أزياء المرأة الجزائرية:

يختلف لباس المرأة الجزائرية من منطقة إلى أخرى، فلباس المرأة الحضرية يختلف على لباس المرأة البدوية، واللباس اليومي يختلف عن لباس المناسبات. حيث لباسها اليومي يكون داكن اللون وخشن ويكون من الكتان وعادة ما يتكون من السروال والقميص والكاراكو، وتضع على رأسها منديلاً من الحرير. وتختلف لباس الصيف عن لباس الشتاء، ففي فصل الصيف غالباً ما تكون ثيلها رقيقة وخفيفة. في حين في فصل الشتاء ترتدي الثياب القطنية والصوفية. وتنتعل في

¹ - A. Ouitis: Op. Cit, P. 77.

قدمها القبقاب أو حذاء قديم، هذا عن لباس البيت أما لباس المناسبات فهو مكون من سراويل ومناديل الحرير والساتان وكراكوات القطيفة والملف المطرزين بالذهب، والحزام أيضا يكون مصنوع من الذهب وحتى الحذاء يطرز بالذهب².

وفي الغرب الجزائري ترتدي المرأة قميصا من القماش وعباءة من الحرير يتوسطها حزام حريري وتضع على رأسها شاشية مطرزة بالذهب وتشد عليها بمنديل، أما في قدمها فهي تنتعل بلغة صفراء أو حمراء اللون، أما في تلمسان يكون لون البلغة أسود. وإذا كان زوجها غني فإنها ترتدي القفطان وحزامها يكون من الذهب³. وكان لباس المرأة في الغرب الجزائري في البيت هو نفسه خارجه إلا أنها عند خروجها تلتحف بالعجار وترتدي حذاء جلديا²⁷. في حين المرأة البدوية ترتدي الملحفة وهي عبارة عن قماش طوله ما يقارب عشرون ذراعا، يخيطنونها على ثلاثة أقسام، ويضعون فوق رؤوسهم منديل من الحرير أما في أقدامهم فهم في معظم الأحيان يمشون دون انتعال حذاء⁴.

9- نماذج من الكتابات النسوية الكولونiale حول المرأة الجزائرية بما أن المجتمع الجزائري تحكمه القيم والمبادئ الإسلامية وتسير نظمته العادات والأعراف فإن الفرنسيين وجدوا الانغلاق الاجتماعي حائلا بينهم وبين اختراق الفضاءات النسوية هذا ما جعلهم يسخرون في سبيل إنجاح مشروعهم الاستعماري الأقلام النسوية ونحن هنا في

² - ج. ديسبارمي: العوايد في الفوايد.... المصدر السابق، ص. 64.

³ - محمد بن عبد الرحمان التلمساني: الفلك المشحون بالمعرب والملحون، مطبعة جوردان، الجزائر، 1906، ص. 32-33.

⁴ - M^{em} P. Bernard : Op.Cit, P. 3.

معرض تقديم نماذج عن هذه الكتابات على سبيل المثال لا الحصر
ونذكر منها:

أ-إليزابيث بروتون: (Elizabeth Broughton): هي رحالة انجليزية
زارت الجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر تزامنت إقامتها بالجزائر
(1806-1812) مع نهاية الحكم العثماني، يعد كتابها Six years
residence in Algies عصارة تجربتها في الجزائر، وهي تعد نموذج
للأدب والفكر الانجليزي النسوي. وقد تناولت في كتابها لقاءها بزوجة "
الرايس علي" التي كانت تمثل آنذاك ثقلا سياسيا واجتماعيا، ومما
نقلته لنا الرحالة في كتابها زينة وأثاث البيت الجزائري كما أنها أشادت
بكرم ضيافة الجزائريين وهذا من خلال ما رآته من زوجة "الرايس
علي". ومن قضايا المرأة التي تعرضت لها قضية عقاب المرأة الجزائرية
التي مارست فاحشة الزنا بوضعها في كيس مغلق وتكون مكبلية اليدين
ورميها في النهر أو البحر. كما تناولت أنواع الأطعمة والأشربة والنظام
الغذائي للمجتمع الجزائري ودور المرأة في تنظيم البيت¹.

ب- د. دوروتي شوليه: (D. Dorothee Cheller): Voyage Dans

L'Aures - Notes D'un Médecin

Envoyé en Mission Chez Les Femmes Arabes- جاء مؤلفها

عبارة عن مذكراتها التي لخصت فيها يومياتها في مهمتها الرسمية التي
أوكلتها لها الإدارة الاستعمارية في منطقة الأوراس، وقد قدّمت هذا
العمل كهدية للدكتور " شانتوميس" وهو بروفييسور في كلية الطب
بباريس. حيث لاحظت هذه الطبيبة أن المرأة الشاوية تمتاز بليونتها في
التعامل مع الفرنسيين أكثر من المرأة العربية التي ترفضهم رفضا تاما.

Elizabeth Broughton : Six years residence in
Algies, se, Newington House, London 1830.

¹ - للمزيد ينظر:

وقد ساعد الوضع الصحي المتدني للمرأة الأوراسية في تسهيل مهمتها خاصة وأن الجزائريين يرفضون تطبيب نسائهم على أيدي الرجال لذلك وجدت ظالتها في تطبيب الجزائريات باعتبارها أثنى مثلن. وقد قدمت وصفا دقيقا للوضع الصحي السائد آنذاك والخريطة الطبية للجزائريين الممثلة في السّحرة، الدجالين، مدعي العلم والولاية إضافة إلى المرأة القابلة التي لا تفقه في الطب شيئا. وفي سبيل التواصل الجيد للطبية مع النساء الأوراسيات استنجدت بآبنة مرابط من قبيلة "ماداغ" (المعذر حاليا، وهي إحدى بلديات ولاية باتنة)².

ج- برنارد: (M. Bernard): Ali et Aicha السيدة برنارد هي معلمة في مدرسة وهران، جاء كتابها هذا باللهجة العامية استعرضت فيه حياة الأسرة الجزائرية. ومن خلال علاقتها القوية التي نسجتها مع العائلات الجزائرية ومن ضمنهم علي وعائشة وهما أخوان صغيران من عائلة قروية في ضواحي مدينة تلمسان. تُظهر الكاتبة في هذا العمل العائلة الجزائرية المتمسكة بالعادات والتقاليد وفي نفس الوقت المنفتحة على الفرنسيين الذين كونوا معهم علاقات وطيدة وصلت حد الصداقة وتبادل الزيارات العائلية. وقد تطرقت لحرمان الفتيات من التعليم، إلا أنها أشادت بكرم المرأة الجزائرية ونظافتها في بيتها وهندامها كما تطرقت للأعمال المنزلية خاصة كيفية إعداد الطعام الذي رأت فيه أحد أنواع الفنون التي تبرع فيها المرأة الجزائرية¹.

² - للمزيد ينظر: Voyage Dans L'Aures - Envoyé en Mission Chez Cheller Dorothée : Notes D'un Médecin Les Femmes Arabes-, imp. Nouvelle J.Cheller- Tizi Ouzou, 1895.

¹ - Cheller Dorothée : OP.CIT.-

د- ماتياس غودري: (Mathéa Gaudry) في كتابها *La Femme Chaoiua de l'Aures* الذي تناولت فيه الحياة اليومية للمرأة الشاوية، وتعرضت من خلاله لكل ما يخصها من عادات وتقاليد ومسؤوليات وانحرافات. يمكننا اعتبار هذا الكتاب صورة عن المجتمع النسوي الشاوي من منظور حقوقي فرنسي هذا إذا علمنا أن Gaudry هي محامية لدى محكمة الاستئناف في الجزائر، وتعتبر كتاباتها عن النضج المنهجي والمعرفي في التقارير الفرنسية فالقارئ لأعمالها يلاحظ الدقة والوضوح والبعد النسبي عن الإيديولوجية الكولونيالية². ومن أعمالها أيضا مقالها في مؤتمر النساء المتوسطيات *Le Congrès International des femmes Méditerranéennes* المنعقد في مدينة قسنطينة أيام 29، 30 و31 مارس 1932م، هذا المؤتمر نظمته "الوحدة الفرنسية من أجل تصويت النساء" "L'Union Française pour le Suffrage des Femme"، برئاسة السيدة Malaterre- Sellier، وقد تناولت في هذا المقال الدور الاجتماعي للمرأة في المجتمع المعاصر، ومكانتها الاقتصادية إضافة إلى عرضها بعض الانحرافات النسوية وعلى رأسها ممارسات البغي والدعارة، وقضايا التعليم والوضع القانوني للمرأة في بلدان شمال إفريقيا بصفة عامة وفي الجزائر بصفة خاصة. وكحوصلة عامة يعد هذا التقرير ا ضاجا بالمادة الخبيرة حول الوضع العام للمرأة الجزائرية في الربع الأول من القرن العشرين³.

² - للمزيد ينظر:

Gaudry Mathéa : OP.CIt

³ - Gaudry Mathéa : *Le Congrès International des femmes Méditerranéennes*, R. A. T.M de Législation et de Jurisprudence, T.XLVIII, A.1932, JURIS- CLASSEURS, Paris, 1932, P. 159-168.

هـ- غواشون: (Goichon) هذه الباحثة الفرنسية التي تمحور عملها الأكاديمي حول المرأة الجزائرية في إقليم بني ميزاب " *La vie féminine au M'Zab* "، يعز هذا العمل الأول من نوعه، حيث قامت فيه الباحثة بالتوغل في المجتمع الجزائري، والتطرق لكل ما يخص الحياة النسوية في بني ميزاب. جاء هذا العمل في جزأين (زهاء الألف صفحة) تتميز بالدقة والصرامة الموضوعية والمنهجية، تطرقت فيه الباحثة لمختلف مكونات الشخصية النسوية ونمط معيشتها ومختلف ممارستها الطقوسية والعقدية والفكرية، ووضعها الاجتماعي في ظل المنظومة الذكورية⁴.

خاتمة:

في نهاية هذه الورقة البحثية نخلص إلى عدة نقاط نجملها في ما يلي:

- أن الكتابات الكولونيالية استطاعت اختراق عمق المجتمع الجزائري من خلال دراستها لقضايا المرأة التي لطالما بقيت في إطار المسكوت عنه ولم يتم التطرق لها من قبل الكتابات المحلية إلا بالزر القليل.
- بالرغم من أن الاثنوغرافيين والأنثروبولوجيين الفرنسيين استطاعوا إمادة اللثام عن العديد من المواضيع التي ظلت مهمشة ومغيبّة إلا أنها لا تخلوا من سموم الإيديولوجيا الاستعمارية.

⁴: للمزيد ينظر:

Goichon (A.M): *La vie Féminine au M'zab* (Etude de sociologie Musulmane), T.1 ,2 Préface de: William Marçais, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1927.

- كما أن الكتابات الفرنسية تعد مصدرا هاما من مصادر التاريخ الاجتماعي، ولكن وجب علينا الأخذ منها بحذر وبعين الناقد والمتمحص.

- لم يكن المشروع الاستعماري يعتمد على رجال السلاح فقط وإنما استعانوا برجال القلم لتحقيق مشاريعهم الاستيطانية.

- كوّنت الإدارة الفرنسية شتى السبل والوسائل لإنجاح مشروعها الاستعماري وإضفاء الشرعية عليه، لذلك استفادت من خبرات الضباط العسكريين، الباحثين الأكاديميين، المدرسين، رجال الدين، المحامين، ... واستفادت من تقاريرهم كلٌّ في مجاله.

- لقد انتبه الفرنسيون للدور المهم والمحوري للمرأة في تنظيم المجتمع، ونظرا لخصوصية المجتمع الجزائري المتسم بالانغلاق لذلك كلفوا كفاءات نسوية متخصصة في مجالات مختلفة للتعامل مع المرأة الجزائرية ونقل صورة دقيقة عنها وإقحامها في بوتقة التغريب.

الببيلوغرافية:

أ- العربية:

- أحمد ساحي: الزواوة من القرن 16 حتى القرن 19 - عهد إمارة كوكو-، ط.

1، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، 2015.

- إدموند دوتي: الصلحاء "مدونات عن الإسلام المغربي خلال القرن التاسع

عشر"، تر: محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، المغرب.

- ج. ديسبارمي: الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامية، مطبعة السيد

جوردان، الجزائر، 1907.

- ج. ديسبارمي: الفوايد في العوايد والقواعد والعقائد، مطبعة السيد

مورقان، البليدة، 1905.

- حياة قارة: النساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط، دار أبي رقرق، الرباط، 2011.

- عبد الرحمان بن محمد الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، ج.4، ط. 7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.

- محمد أرزقي فراد: تحرير تاريخنا من المدرسة الكولونيالية "بلاد الزواوة نموذجاً"، سلسلة منبر حوار الأفكار، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2012.

- محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري: الاكتراث في حقوق الإناث، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر، 1895.

- محمد بن عبد الرحمان التلمساني: الفلك المشحون بالمعرب والملاحون، مطبعة جوردان، الجزائر، 1906.

- هانوتو ولوتورنو: منطقة القبائل والأعراف القبائلية، ج.2، تر: مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013.

ب- الأجنبية:

- Abou Bekre Abd Esselam Ben Choaib : **Les Marabouts Guérisseurs**, R.A, V. 51, A. 1907.

- A. Ouitis: **Les Contradictions Sociales Et Leur Expression Symbolique Dans Le Setifois**, S.N.E.D,Zirout Youcef ,Alger, Algeria.

- A. Wormier : **L'Algerie devant le sénat**, Imprimerie de la Dubuisson et G, Paris, 1863.

- Charles de Foucaud, (Le per): Dictionnaire Touareg , français, Dialecte de L'Ahaggar, Imprimerie National de France- T(1), 1951.

- Cheller Dorothée :Voyage Dans **L'Aures - Notes D'un Médecin en Mission Chez les Femmes Arabes-** imp. Nouvelle J.Cheller- Tizi Ouzou, 1895.

- E. Masquary : **Formation des cites chez les population sédent aires de l'Algerie(Kabyles du Djurdjura, Chawouia de l'Aurès, Beni Mezab)**, thèse présenté a la faculté des lettres de Paris, 1888 .

- Elizabeth Broughton : **Six years residence in Algies**, se, Newington House, London 1830.
- Gaudry Mathéa : **Le Congrès International des femmes Méditerranéennes**, R. A. T.M de Législation et de Jurisprudence, T.XLVIII, A.1932, JURIS- CLASSEURS, Paris, 1932.
- Goichon (A.M): **La vie Féminine au M'zab** (Etude de sociologie Musulmane), T.1 ,2 Préface de: William Marcais, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1927.
- M^{me} P. Bernard : **Ali et Aicha**, Dessins V. Fulconis,Oran, 1907.
- Mohamed ben Chaneb : **Proverbes arabes de l'Algérie et du Maghreb**, Recueillis traduits et commentes, Paris, ErnestLeroux, 1906.
- Souad Ben Djaballah: **L'accès des femmes a la propriété fonciété; le cas de l'Algérie**, Tunis, 2000.
- Villot Eugén : **Mœurs et Coutumes institutions des indigènes d'Algérie** , Libraire éditeur, Alger, 1888.
- F. Patorni: **Délibération de l'année 1749 dans la grand Kabylie**, R.A, V.39, Alger, 1895.
- G. Delphin: **L'Arabe Parlé**, A.Jourdan, Alger, 1891.
- Gaudry Mathéa : **La femmes, Chaouia de l'Aurés**, E.Chiheb-Awal, 1998.-